كلمة الأستاذ الدكتور مازن المبارك في تأبين الدكتور محمد شفيق البيطار رحمه الله

الدكتور شفيق البيطار

رحمة الله عليه، وغفر له وأحسن إليه، فأنا لن أرثيه، وقد كنت أوثر أن يقول رثائي.

لقد ذكّرني موته بقول رسولنا ﷺ: ﴿سيأتي زمان على أمّتي يمر الرجل بقبر صاحبه فيقول: ليتني كنت مكانك﴾.

لست أدري أيقولها: لفساد العصر أو لفساد أهل العصر؟ أو إيثارًا لحياة صديقه على حياته، فقد كنت أتمنى له طول العمر وامتداد الحياة وتحقيق الآمال!!

رحمه الله، فقد عرفته منذ أكثر من نصف قرن، وعرفت فيه خُلقًا قلّ نظيره، فهو هادئ، دمث، يحب الأناة والهدوء، حلو المعشر، خافت الصوت، وهو كنز في العربيّة، وعلومها، ومصادرها، حاضرُ الحجة، سريع البديهة.

لقد فقدناه أستاذًا جامعيًّا محبوبًا، وخسرناه زميلًا مجمعيًّا يُنجدنا بالحجة والبرهان، وبذكر المصادر بالاسم والعنوان.

لقد غاب بفقده أخٌ صادق الودّ، تميَّز بالألفة والوفاء، وسعة المعرفة، وكثرة الاطلاع.

لستُ أنسى زياراته لي، وتردَّده عليّ وهو طالب في الجامعة. لقد كان يزورني ومعه مجموعة من الأسئلة فأفرح لأن أسئلتي له عن الكتب الجديدة وطبعاتها، تعدل أسئلته العلمية لي أو تزيد!!

انتقل من دار ﴿كلّ مَن عليها فان﴾ إلى دار ﴿حَسُنت مستقرًّا ومُقامًا﴾.

﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾.

لقد كان طُلَعَةً يحب أن يعرف كل شيء، وكان رحمه الله خزانةً من الفهارس السيّارة، يعطيك ما تريد بديهةً كلَّ ما تريد أن تعرفه عن الكتب العربية وطبعاتها، والمكتبة التي أصدرتْها!

لقد كنت اسمّيه «ابنَ النديم» لهذا العصر، وكأنه ابن النديم القديم، وأنا أنظر إلى ابن النديم (380هـ) على أنه فهرست أي ثَبَتٌ بأسماء الكتب، ولكني أرى فيه شهادة تثبت إلى أي درجة وصل العرب والمسلمون من التقدّم والحضارة فيما جاء فيه من أسماء الكتب واختلاف الفنون.

فكيف إذا كان الدكتور شفيق يحدثك عمّا ضمّت تلك الكتب، وعن قيمة ما جاء فيها من علوم؟! لقد كان على علم واسع واطلاع كثير ومعرفة بالمكتبة العربية قديمها وحديثها، وكان على درجة عالية من الأخلاق الكريمة؛ لم أسمع منه كلمةً أساء فيها إلى أحد، وكان إذا نقد الكتب يتجنَّب ذكر الأسماء والأشخاص من مؤلفين أو محقّقين، أي إنه كان يذكر الكتب ويحكم عليها بعيدةً عن أسماء مؤلفيها أو مُحققيها! وتلك هي اليوم عفّةٌ نادرة!

وكان يكره التفاخر أو حُبَّ الظهور، ولم يقل يومًا إنه شاعر! مع أنه كان ينظم الشعر الجميل؛ يرثي ويمدح، وينظم شعرًا كثيرًا للأطفال يعرفه إخواننا في كثير من أقطارنا العربية أكثر مما نعرفه.

كان الدكتور شفيق كالنحلة، يصنع العسل، ويؤثر العيش في شرنقته، ويصدّر عسله ليرتوي به البعيد والقريب، وأنت إلى جانبه يخجل أن يحدثك عمّا يعمل أو يُنتج! وهكذا شأن الرجال الكرام؛ لا يحدثونك بأقوالهم، ولكن يتركون أحوالهم تُنبِئُك عن أفعالهم. لقد انتقلتَ من دار ﴿كلّ مَن عليها فان﴾ إلى دار ﴿حَسُنت مستقرًّا ومُقامًا﴾.

رحم الله الأخ الدكتور شفيق كفاء ما قدّم للعربيّة وأهلها وأجيالها من جهود في التدريس والتأليف والتحقيق، ونسأل الله أن يحسن إليه ويرحمَه ويعوّضَه خيرًا مما ترك، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وإنّي لأتوجّه إلى السيّد رئيس المجمع تكليف اللجنة الثقافية إعداد كتاب عنه يخلّد ذكره، والسلام.